قراءة تاريخية تحليلية لحركية الخطاب الدعوي

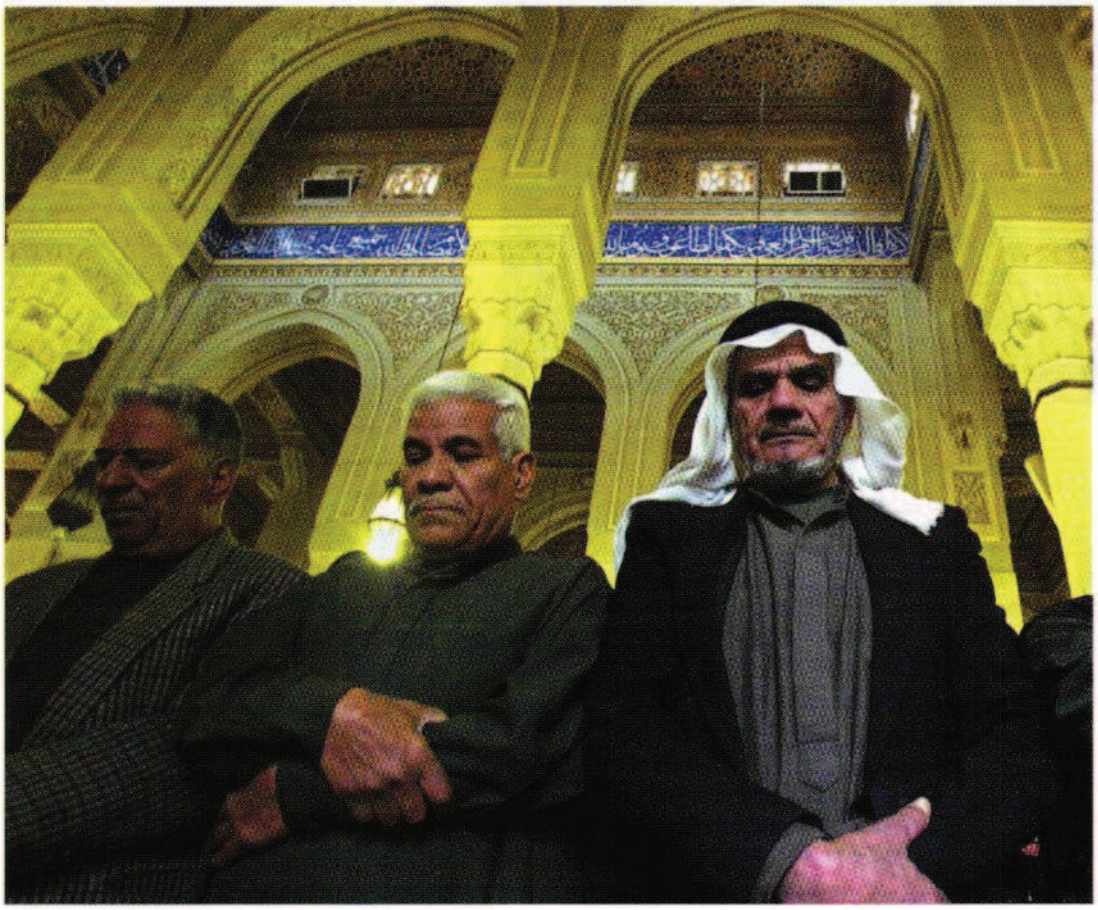

أهداف الخطاب الدعوي الإسلامي التصورية والواقعية والنظرية تبلورت على يد الرسول الكريم خلال مسيرته الدعوية

بقلم: د.أحمد عيساوي

أستاذ الدعوة والفكر الإسلامي المعاصر كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية جامعة باتنة. الجزائر

واقع الخطاب الدعوي وعصر انطلاقته

تبلورت أسس وقيم ومكونات ومناهج واتجاهات وأهداف الخطاب الدعوي الإسلامي التصورية والواقعية والنظرية والعملية بلورة نهائية على يد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم خلال مسيرته الدعوية بين القبائل العربية، وغيرها من القبائل اليهودية، وبعض متنصري العرب، ومتحنفيهم في أرجاء الجزيرة العربية. ومع سائر القوى الوثنية والكتابية المجاورة في شمال وجنوب الجزيرة العربية (الروم. الفرس. الأحباش.) على مدار جهاد ومكابدة سني الدعوة والدولة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وفي أثناء تكوينه وتدريبه وإعداده لجيل التغيير المنشود من صحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، الذين شكلوا منارات اهتداء إضافية في مشهد الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد، وقبسات نور معلمية واقعية في أنحاء شتى من جزيرة العرب.

وقد أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل نهائي لمكونات ومناهج الخطاب الرباني للبشرية قاطبة، واضعا بذلك التأسيس الدعوي

الرشيد والمتقن الحد الدقيق لكل الجهود النبوية السابقة له التي شكلت على مدار قرون الدعوة السابقة تراكمات التعاليم الربانية لهذه البشرية الضالة عن منهج ربها. ومؤصلا في الوقت نفسه لقيم ومنطلقات وممارسات الخطاب الدعوي الرشيد، ضمن أنساق ومسارب من التصورات الربانية السليمة، التي تنهض - بقوة - بالبنى الداخلية لكل عناصر التغيير الأساسية في أعماق الفرد المسلم، وتعرج به عاليا لرسم معالم خطاب التغيير وإحداثاته المركزية للذات وللآخر، هذا الفرد المُشكَّلُ للمحور الرئيس في هذه العملية التغييرية الشاقة والمعقدة، بكل تشكيلاته وأبعاد نفسيته العقلية والروحية والوجدانية والسلوكية والإنجازية الواقعية. وذلك بالتعامل القيمي الواعي والهادف مع مجموعة العناصر الأساسية في هذه العملية الدعوية.

وقد تنبه الخطاب الدعوي الإسلامي منذ بداية انطلاقته الدعوية الجهرية إلى أهمية هذه العناصر الديناميكية والأساسية في عملية التغيير الحضارية، لنقل أمة العرب بدءاً من المتردي والراهن الوثني، باتجاه الأفضل المثالي والواقعي الرباني، تمهيدا لنقل البشرية كلها الرازحة تحت قرون الوثنية، وأغلال الجبروت والظلم، ونير الطغيان والعبودية.

وقد سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء عكوفه على صناعة وصياغة جيل التغيير المنشود من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى تفقيه وتدارس رشيد وعميق لمكونات هذه العناصر التغييرية، عبر تغذية وتنمية الوحي الإلهي لمصادر ثقافته وفهمه وإدراكه، وذلك عبر إمدادات الوحي الإلهي المقدس، وتعاليمه القرآنية الرشيدة، وقيمها اليقينية المطلقة، وحقائقها القيمية الأكيدة القطع، المختزلة لمعطيات ولتجارب ولأحاديث القرون الوثنية العجاف، ولأحداث السنين البائدة في التعامل مع معطيات ومكونات المنهج الرباني، والمبلورة لسائر جهود الأنبياء والرسل الأكرمين العظيمة عليهم الصلاة والسلام في صناعة وصياغة الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد، والملائم لتبليغ تلك التعاليم الربانية لأممهم.

وعلى الرغم من تعدد التصورات والملل والنحل في جزيرة العرب (حنفاء. يهود. نصارى. دهريين. مشركين. وثنيين)، وتأسُّس عادات الحياة العربية عليها، وترسُّخها في نفوس وواقع وحياة الكثيرين منهم، وقدرتها على صنع خريطة فسيفسائية تصورية وعقدية في جزيرة العرب. الأمر الذي ينبه المتوسم المعتبر إلى استحالة قيام أي وحدة تصورية أو شعورية أو وجدانية أو واقعية بين سكانها، وهي صورة الواقع العربي الجاهلي يومها. إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استطاع - بفضل تأييد وتثبيت وتعليم الله له ثم بجهده البشري العظيم - أن يدرك أهمية هذا العنصر التصوري الداخلي الدقيق في عملية التغيير، فوجه غاية جهده، وأقصى طاقته لمعالجته بشتى الوسائل والطرق، شاغلا الحيز الأكبر من اهتمامه ووقته تجاهه، بحيث دام طوال سني الدعوة والدولة الإسلامية كلها، واستمر إلى أن أسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم روحه الطاهرة إلى خالقه بريئة صافية من كل مسؤولية بشهادة خالقه ومرسله سبحانه وتعالى حين أثنى عليه وفاءه بواجب حمل وتأدية أمانة الرسالة فقال: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) (المائدة: ٣)، مركزا مبضعه عليه الصلاة والسلام في معالجته الدعوية تلك على مسلك العبور لحظيرة الإسلام بنطق الشهادتين اللساني، وعشقهما القلبي والوجداني، وترجمتهما السلوكي والعملي، وعلى فريضة الصلاة كرمز قيمي محوري قائم، وكإطار مركزي جامع، ومُفعِّل ومترجم لسلامة تلك القيم الربانية والتصورات المرجعية المقدسة في النفسية الإسلامية السوية، القابلة للتعامل والتفاعل مع كل خطاب دعوي إسلامي رشيد.

ولتبليغ هذا العنصر التوحدي الرئيس في عملية التغيير التي أحدثها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جيل التغيير أولا، ثم بين القبائل العربية وغيرها في الجزيرة ثانيا، وما جاورها من الأقاليم ثالثا، ولضمان استمرار التدفق القيمي الرباني للسيل الدعوي خارج الجزيرة العربية حتى من بعد

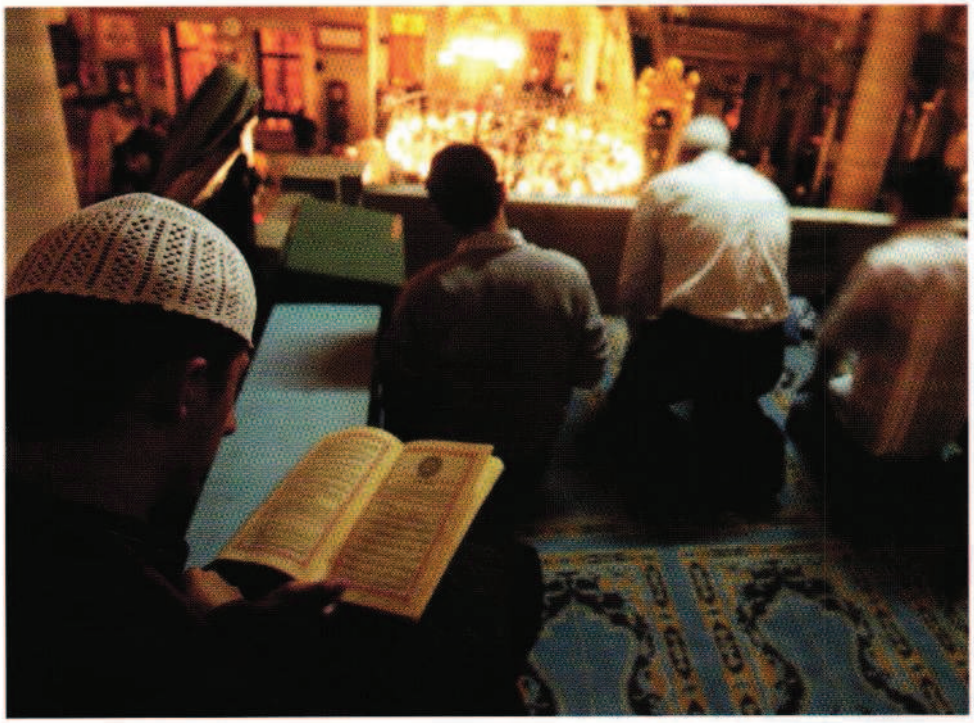

الخطاب الدعوي الإسلامي تنبه منذ انطلاقته إلى أهمية العناصر الديناميكية في عملية التغيير الحضاري

وفاته صلى الله عليه وسلم عبر أصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم، - وهو الذي حصل بالفعل مع صحابته الكرام من بعده - استجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع طليعة جيل التغيير المنشود كل عناصر التغيير المهمة الروحية والواقعية، ووظفها بكفاءة بالغة التأثير في خطابه الدعوي الإسلامي الرشيد الآني والمستقبلي، المحلي والإقليمي والعالمي. والمتمثلة في القراءة الدقيقة والرشيدة للتفاعل القائم بين مختلف العناصر (العقل. الوجدان. الواقع). (في أثناء تلقيها للخطاب الدعوي، وتفاعلها معه، وتأثرها به آنيا، أو تأثيرها فيه مستقبليا).

وقد ركز رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَحلِّيَة وكيانية ومكانية وزمانية ووسيلة إلقاء متن الخطاب الدعوي، مفعِّلاً - قدر الإمكان - فهمه الدقيق لتفاعل هذه العناصر والمكونات مع بعضها بعضاً، لإنجاح فاعلية الخطاب الرباني في التأثير في عمق النفوس العربية المتلقية له، وعلى وجه الخصوص في نفسيات النخبة.

ولم تقف وسائل التبليغ - بالرغم من بساطتها وتلقائيتها ومباشرتها - يومها مانعا في حمل ونقل مضامين الخطاب الدعوي لمشركي الجزيرة العربية، كما أنها لم تمنعهم من الاتصال المباشر بصاحب الحنيفية السمحة لسماع خطابه، ومن ثم الحكم عليه، كما أنها لم تحجزه البتة عن تمرير ما يريده من التواصل معهم حيال مضامين الخطاب الرباني الأصيل، ونجح في مهمته التوصيلية تلك بمعية طلائع التغيير التنويرية من الصحابة. على رغم التشويش والإرجاف والدعاية المغرضة التي كان يحدثها فصيل المنافقين المندسين وأحبار يهود وبعض المرجفين من مشركي قريش خصوصا والعرب عموما.

والملاحظ على منهج صاحب الحنيفية السمحة صلى الله عليه وسلم أنه تدرج عليه الصلاة والسلام معهم عبر عناصر الخطاب ومكوناته، وعبر دوائر إيصال الخطاب، الفردي فالجمعي فالجماعي فالاجتماعي فالأممي. وعبر أماكنه القريبة والبعيدة والنائية والمجهولة. مقدما بذلك أدق وأبلغ تركيبة دعوية.

ومن ثمّ نجح الخطاب الدعوي الإسلامي في عصر تواضع وتلقائية وبساطة الوسيلة الدعوية، وحقق بعض مواطىء الأقدام في الجزيرة العربية، بدءا بمكة، ثم بالمدينة وما جاورها من أحياء القبائل العربية واليهودية، إلى أن صار أوجه وأقدر خطاب مقنع ومجيب، وموجه لمختلف المشكلات الغيبية والواقعية القائمة يومها. يدفع برفق وبثقة ووضوح كل خطابات الإرجاف والتشويه والتعتيم والإرباك الوثني.

وظل هذا الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد يزاحم هذه الخطابات الوثنية والكتابية المحرفة، ويتوسع على حساب الباطل والزيغ الكامن فيها، ويقلص من قدرتها على الاحتواء والمواجهة، إلى أن تبوأ مكان الصدارة بشكل نهائي في جزيرة العرب.

ولعل أهم نجاحاته الاستراتيجية المحسوبة له - بالإضافة إلى نجاحاته الكثيرة الأخرى - تمثلت في صناعة جيل رباني، وصياغة جيل اهتدائي واقعي ومثالي معا، قادر على حمل وترجمة رموز ومفردات هذا الخطاب الرباني في الواقع، باتجاه الذات والأنا أولا، وباتجاه الآخر، المحلي والإقليمي والعالمي ثانيا وثالثا ورابعا.

واقع الخطاب الدعوي في عصر عالميته

انطلق الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد من عقاله في الجزيرة العربية باتجاه الآخر المجاور بعد أن صفت له كينونة الذات، واستقر له الأمر السوي في قواعد الانطلاق، مغريا بمضامينه اليقينية وقيمه الربانية المطلقة هذا الآخر. مُبْهرا - في الوقت نفسه - عقل الآخر المجاور، بما يحمله له من نباهة وفطنة وذكاء واقتدار. وُمْفحما الآخر أيضا بما يقدمه له من باقات الصفاء وصنوف الطهارة وصدق الأخوة والتوادد والسلام، كل ذلك في حوار حضاري غير مسبوق، قام بين خطابين دعويين متمايزين، لانتزاع بني البشر من واقعهم المعيش، باتجاه واقع آخر أكثر أمنا، وأرغد عيشا، وأفضل يقينا، وأرحب أفقا، وأضمن مصيرا وغاية.

انطلق هذا الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد بالوسائل الدعوية التلقائية عينها، مُعَزَّزاً في نفوس أصحابه والأمناء عليه بالقدرة على التأقلم مع الآخر ومع معطياته الجديدة، وبالقدرة على قابلية التفاعل والتعامل مع الواقع الجديد، وابتكار الوسائل الجديدة القادرة على ترقية إيصال مكونات ومضامين خطابه الرشيد إليه.

ووجد الآخر في هذا الخطاب ما يشفي غليله حيال قضايا روحية وواقعية كثيرة، ظلت غامضة ومبهمة عليه طوال قرون الفترة الماضية، فأقبل على هذا الخطاب إقبال المتعطش النهم، فارتوى من معينه المطلق بكل صدق وأريحية.

وقد تمدد هذا الخطاب الدعوي الإسلامي حتى شمل الكثير من الأعراق والشعوب والمجتمعات والأمم في زمن

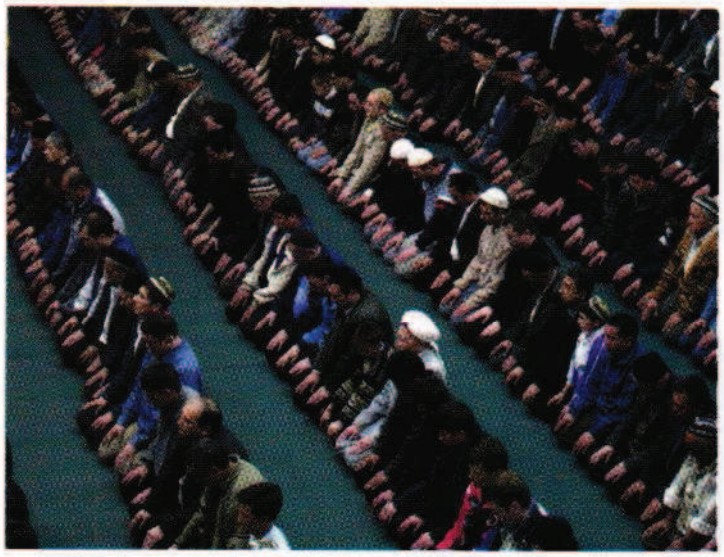

نجاحات الخطاب الدعوي الاستراتيجية تمثلت في صياغة جيل رباني مثالي

قياسي، أكسبه مزيدا من الدعم والتأييد والتوسع، كما عاد عليه بإضافة قدرات تجريبية موروثة عن الآخر، وضعته سريعا في إطار القيادة العالمية الحضارية، على الرغم من قدرة ونباهة أعدائه على التلون وابتكار وسائل التعويق والتشويش والإرجاف الخفية.

ولم يكن لهذا الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد أن يكتسب رقعا من التمدد الروحي، ويحظى بمساحات واسعة من التنوع العرقي، ولولا مؤهلاته الحقيقية الرشيدة، ومصداقية نخبته الدعوية الفريدة، ومبادىء وقيم مرجعيته الربانية الصادقة، القادرة على استيعاب الواقع الراهن، ورسم معالم وآفاق المستقبل لما انتشر هذا الخطاب الدعوي عبر الآفاق انتشار النار في الهشيم.

ولعل أهم عامل استراتيجي أكسب هذا الخطاب سرعة التمدد وقياسية الانتشار تَضَمُّنُ مرجعيته المقدسة على أسس ومبادىء الحرية والعدل والأخوة والمساواة والتوادد والسلام والطمأنينة لكل المؤمنين به، ومنحه الاختياري لحقوق المواطنة الإسلامية العادلة والمطلقة لكل الداخلين فيه، وتأمينه الشامل لهم في أنفسهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم ومكانتهم. فأعطاهم من الحرية والمكانة بحسب مواهبهم، فحموا الدين، وحملوا علومه عن جيل الصحابة الكرام، حتى صار الدين لا يؤخذ إلاّ عن أعلام الأمم المفتوحة.

فاخترق بهذه القيم الربانية الفاضلة الحدود المرئية، وتسرب عبر السدود الخفية يعلن في الملأ الأعلى والأدنى أن عصر الرشاد والهدى هو هديته للبشرية الضالة.

واقع الخطاب الدعوي في عصر تعثره

استمر هذا الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد يمد البشرية قاطبة بمدد من التعاليم اليقينية، عبر وسائله التقليدية والمستحدثة طوال قرون التنوير الإسلامية السبعة الأولى، واستطاعت نخبه وطلائعه الوارثة لعلوم النبوة من سائر الأمم المفتوحة أن ترتقي به، وتجدده كلما طرأت عليه عاديات الران، وشوائب التدليس وتخليطات المتطاولين، فتدفق باجتهادها العلمي والمنهجي في شرايينه دماء التجديد، وروح مواكبة العصر، محققين فيهم شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها) (أخرجه أبو داود).

عملية نقل الأمة المتخلفة إلى صورة الماضي السعيد شكلت محوراً رئيساً لكل خطابات التجديد

حتى استأنس كثير من علمائه وأمنائه ودعاته إلى قدرته - بصورته الدعوية تلك - على احتواء مشكلات الناس وتطلعاتهم الحضارية، ناسين أو متناسين أن واجبات التطوير والتجديد والتحديث الدائمة لبنيته ومنهجه ووسائله، هي السبيل الوحيد لبقائه حيا وفعالا لقيادة الجماهير المسلمة، والمرجع الأساس لتوجيه سائر شؤون حياتها.

وصار الطابع الملحوظ عليه بعد قرون الخيرية الثلاثة الأولى - الأمر الذي صاغ أجيالا من المؤمنين به ممن يركنون إلى نمط التقليد، وممن يستكينون للدعة والتغني بالمجد الغابر والماضي الدعوي التليد.. بحجة واهية، تختزلها المقولة الركونية التالية: (أنه ما ترك الأول للآخر من شيء) ، فلِمَ الابتداع ؟ ولِمَ الابتكار ؟ ولِمَ بذل الجهد والاجتهاد؟ ولِمَ التحقيق والنظر في أمور قد سبق إليها الأولون؟

واستمرأ الخاص والعام استنشاق نسمات الركود، واستأنس الناس تنسم عبير التقليد، حتى عدّوا كل محاولة للاجتهاد والتجديد ضربا من الابتداع المذموم، ونمطا من البدعة المحرَّمة، الواجب وقفها وضرب على أصحابها بيد من حديد، وتحرك غلاة المذهبية يشوهون روح الإبداع والابتكار والتجديد، ويشنعون على أصحابها عند العامة والحكام، بحجج المحافظة على تراث السلف، وإنقاذ ما تبقى من علمهم الصحيح من أقلام وعقول التطاول والابتداع، فتعرض العلماء للسجن والتعذيب والإبعاد والنفي والقهر والحرمان والقتل جراء فتن المغالين وغيرهم في المشرق والمغرب والأندلس.

كما تحركت يد التهديم الخفية التي واصلت نشاطها التقويضي في جسد الأمة الإسلامية بسيول من خطابات التعويق والإرجاف الداخلية منذ هزيمتها الأولى في القادسية ونهاوند وأجنادين واليرموك.

واستطاعت أن تحدث شرخا كبيرا في الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد، كما استطاعت أن تشغب قدرا مهما من الطاقات الإبداعية والاجتهادية القادرة على تطوير الخطاب الدعوي ووسائله الإيصالية، لتوجه كبير جهدها واجتهادها نحو هذه الجبهة التهديمية الخفية، فخسر بذلك الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد والوسطي والمتوازن سيولا من الإمدادات العلمية والمنهجية والوسيلية لترقيته والنهوض به، ليواكب قضايا العصر التي تجيب على مختلف تطلعات الجماهير المسلمة.

وغرق العالم الإسلامي في خطاب دعوي جهادي، يغلب عليه طابع الآنية والعجالة لاستدراك ما فاته من تراجع وأفول،

ولتحويل الهزيمة العسكرية والحضارية إلى نصر آني سريع، وتم له ذلك بالفعل خلال القرن السابع والثامن والتاسع الهجري، ولكنه كرَّس معه روح التقليد والتعصب المذهبي، الذي أفضى إلى حال من الركود الدعوي والوسيلي، أرخت بسدولها الباهتة على متن الخطاب الدعوي الإسلامي الرشيد، فصار خطابا دينيا تقليديا سكونيا تخديريا، مهد للحملة الاستعمارية الصليبية الحديثة بعد سقوط آخر حصون الممانعة العربية والإسلامية في غربي البحر المتوسط في غرناطة سنة ٨٩٧هـ ١٤٩٢م.

وفي ظل هذه السنوات الإسلامية العجاف على الخطاب الدعوي ووسائله الإيصالية تقدم الآخر خطوات جبارة في ميدان الوسيلة، وتجاوز عتبات نقل المعرفة وترويج الخطابات المختلفة عبر وسيلة المشافهة والخط.

وعلى الرغم من تجدد الدماء الحضارية في الجسد الإسلامي بعد سقوط بغداد وقرطبة ممثلة في الخلافة العثمانية سنة ٧٣٥هـ، إلاّ أن الخطاب الدعوي ظل يحمل معه مورثات التقليد وجينات الجمود، مع تخليط صوفي ووسيلي هجين ولّد حالة من التداعي القيمي والعلمي والفكري والأدبي، غطت عليها انتصارات سلطان البرين والبحرين في اسطنبول لقرون هجرية ثلاثة (٩ و ١٠ و ١١)، سرعان ما انكشفت تلك الحال المرضية التي اعترضت الكيان الإسلامي عموما، ومست الخطاب الدعوي الرشيد خصوصا، بسبب تداعي وتراجع فاعلية الخطاب الدعوي الرشيد. فسقط العالم الإسلامي فريسة سهلة بيد القوى الصليبية المتحفزة، ولم تسعفه خطاباته الدعوية الجهادية تلك من إنقاذ كيانه من الاستعمار على الرغم من صدقه وحماسته الجهادية ضد الحملات الصليبية، لأن المرض كان قد استشرى عميقا في سائر الجسد الإسلامي.

واقع الخطاب الدعوي في عصر بعثه

حدث أن استكملت الدورة الحضارية السننية دورتها، ومرت سنو السبات على العالم العربي والإسلامي، وتفاعلت عوامل ومسببات البعث والتجديد الحضاري فيه، التي أسفرت في مطالع القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر ميلادي عن بوادر نهضة حضارية إسلامية وعربية جديدة، بشرت بمناخ واقع نهضوي راق، كان قد مهَّدَ له خطاب دعوي تجديدي ناهض، صدح به رجال الإصلاح والتجديد الديني الإسلامي في بقاع شتى من العالم العربي والإسلامي.

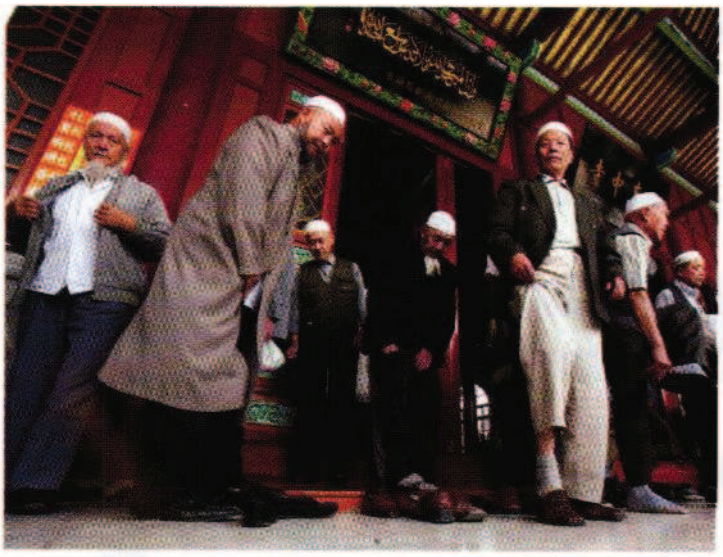

أمد الخطاب الدعوي الإسلامي البشرية قاطبة بمدد من التعاليم اليقينية عبر وسائله التقليدية والمستحدثة

انبعث هذا الخطاب التجديدي الناهض من بين ركامات وأنقاض ماضوية ثقيلة، كان من أهمها: خطابات تركة الماضي التقليدي المتعثر، التي شكلت طبقة من الران على العصر الذهبي السابق لها. وخطابات الواقع المحلي المثقل بروح الهزيمة، والمشبع بمعوقات التخلف والتراجع. وخطابات التحدي الخارجية «المتسنفرة» بقوة تدميرية هائلة لاسترجاع الماضي الغابر لها.

انبعث هذا الخطاب التجديدي الناهض، وخاض معركة متعددة الجبهات، مع مختلف خطابات الإرجاف والتشويه والتعتيم والتحدي، مدفوعا بغيرة دينية إسلامية صادقة، وبحماسة إيمانية خالصة، وبقوة روحية أصيلة، هدفت بالأساس إلى كشف ورفع كل حجب الظلام القائمة.

وشكّلت عملية نقل الأمة العربية والإسلامية المتخلفة إلى صورة الماضي السعيد محورا رئيساً لكل خطابات التجديد والإصلاح الديني الحديثة، وتنوعت تلك الخطابات التجديدية بحسب عوامل ودوافع وأسباب وأهداف انطلاقتها، مكررة في الوقت نفسه صيغ التجديد وفلسفته من اتجاهات خطابات الفكر الإسلامي الأولى، ببنيات خطاب فلسفي مكرور، وبصيغ خطابية أكثر حداثة وملاءمة للواقع الدعوي الجديد.

وعلى الرغم من الامتدادات الجغرافية والديمغرافية التي حققها هذا الخطاب الدعوي في العصر الحديث، إلاّ أنه تعثر بسبب عوامل عدة تعويقية كيدية، داخلية وخارجية، حيث تصدت له كل قوى الكيد الداخلي والتآمر الخارجي، لأنه سعى بكل وسائله إلى تنوير الجماهير المسلمة، وتبصيرها بواقعها الأليم، وحاضرها ومستقبلها، وعمل على سحب ولائها من تلك القوى، وتحويله لله سبحانه وتعالى، وكذلك كان الأمر بالنسبة لسائر الخطابات الدعوية الإسلامية، التي سعت لتحويل ولاء الأمة نحو ربها، وسعت إلى تحويل الاحتكام لشريعة الإسلام، كما سعت لمجابهة القوى الاستعمارية الباغية.

وظل - وسيظل إلى يوم الدين - هذا الخطاب الدعوي الرباني الأصيل في صراع عقدي دائم، وجهاد مرير مع القوى الظلامية الباغية حتى تتمكن من تدجينه، أو يتمكن هو من الانتصار عليها، أو تتمكن هي من الغلبة عليه، ولكن صدقت حكمة الله العظيم حين قرر منذ الأزل بأنه: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا). فهل نعتبر؟.

والله من وراء القصد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ■